18me année No 867

Le Caire - 18—2— 1950

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨٦٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٦ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٦٩ — ١٣ فبراير سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

على محمود طه

شاعر الارواح النفسى

للأستاذ أنور المعداوى

— ٩ —

« تعتبر بحيرة كومو أجمل البحيرات الثلاث التى ينفرد بها اللمبارديا الايطالى ، ومن أجل مفاتن أوروبا التى جذبت إليها كثيراً من الشعراء فألهمتهم أرق أشعارهم وأعذب أغانيهم ، وقد زار الشاعر هذه البحيرة متنقلا من شواطئها ومدنها وأروع جبالها المسمى بالبرونات ، فنظم هذه القصيدة التى أهداها إلى أديبة أمريكية صحبته فى هذه الزيارة . . »

وكعادة الشاعر فى التقديم بمثل هذه الكلمة النثرية لبعض قصائده ، تطالعك هذه المقدمة مصحوبة بهذه القصيدة الفريدة فى وصف الطبيعة حول بحيرة كومو الايطالية . . . ومن الصفحة الثامنة والأربعين من « ليالى الملاح التائه » ننقل إليك هذه الصورة الوصفية الأخيرة فى إطارها الحسى الأخير :

هيئى الكأس والوتر تلك « كومو » مدى النظر
واصدحى ياخواطرى طربت شقة السفر
ودنت جنة المنى وحلا عندها المقر
قد بعثنا بها على موعد غير منتظر !
فى مساء كأنه حلم الشيخ بالصغر
البحيرات والجبال توشحن بالشجر
وتنقبن بالغما م وأسفرن بالقمر
والبرونات غادة لبست حلة السهر
نثرت فوقها الدنيا وكما يثمر الزهر
وعبرنا رحابها فأشارت لمن عبر
ها كها قبلة ؟ فمن رام فليركب الخطر !
فسمونا لخدرها زمراً تلوها زمر
فى زجاج محلق لادخان ولا شرر
يتخطى بنا الفضا ء على السندس النضر
سلم يشبه الصرا ط تسامى على البصر
قالى النجم مرتقى وإلى السحب منحدر
وحللنا بقمة دونها قمة الفكر
بهج فى كنوزها للعيون مدخر
بابل ؟ أم بحيرة ؟ أم قصور من الدرر ؟
أم رؤى الخلد فى الحياة تمثلن للبشر ؟
حبذا أمسياتها وحنينا إلى البكر
ونزوح إلى السفين تهيأن للسفر
نسيت شغلها القلوب وهلن للسمر

أوجه مثلما رنت زهرة الصيف للمطر
أضحيانية السمات هلالية الطرر
يتوهجن بالشبـــلب ويندين بالخفـــر
طلعة تسعد الشقي وتعطى له العمر
تمنح الحظ من تشا ء ، وتشقى ؛ ولا تذر !
إنما تنظر السما ء إلى هذه الصور
لترى الله خالقاً مبدعاً معجز الأثر !
شاعر النيل لف بها كل مفكر
الثلاثون قد مضت في التفاهات والهذر
فتزود من النعيم لأيامك الأخر
أين وادي النخيل أم قاهرياته الغرر ؟
لا تقل أخصب الثرى فهنا أورق الحجر !!
هاهنا يشعر الجما د ويوحي لمن شعر !!
آه لولا أحبة نزلوا شاطىء النهر
ورفات مطهـــر وكريم من السير
لتمنيت شرفة لي في هذه الحجر
أقطع العمر عندها غير وان عن النظر
فلقد فاز من رأى ، ولقد عاش من ظفر

***

يا أبنة العالم الجديد صلي عالماً غير
في دمي من تراثه نفحة البدو والحضر
وأعان لمن شدا ومعان لمن فخر !
ماتسرين ؟ أفصحي ! إن في عيشك الخبر
الغريبان هاهنا ليس يجديهما الحذر
نحن روحان عاصفا ن وجسمان من سقر
فاعذري الروح إن طغى واعذري الجسم إن ثأرا
نضبت خمر بابل وهوى الكأس وانكسر
وهنا كرمة الخلو د فطوبى لمن عصر
غيم ، والربيع دافق يشتكي الظامىء الصدرا
ولمن هذه العيون تغمزن بالحور ؟
يقتن يلعبن بالنهى لعب الطفل بالأ كر
من أسف من الشعاع وأخف من القدر ؟!
ولمن توشك الثدى وثبة الطيرق السحر ؟ !
كل إلف لالقسه م بالصدر وابتـــدر
عض في الثوب واشتكي وطأة الخز والوبر
سمة الطائر المذ ب في قيده نقر ! !
ولمن رفت المبـــا سم واسترسل الشعر ؟
ثمر ناضج الجـــنى كيف لا تقطف الثمر ؟!
ما أبى الخلد آدم أن غوى فيه أو عثر !
زلة تورث الحجى وترى الله من كفر
كأسنا ضاحك الحبا ب ، معتق من الكدر
فاسكبي الخمر وارشفيـــه على رنة الوتر
وإذا شئت فاسقنيـــه على نغمة المطر
فلقد يذهب الشبا ب وتبقى لنا الذكر !

تلقى أحياناً وجهاً من الوجوه الجميلة فيجذب نظرك، ويستحوذ على فكرك ، ويثير من جنبيك مكامن الاعجاب ، فاذا غاب عنك ضاءت صورته من الخاطر ، وتلاشت فتنته من القلب ، وتبخرت ظلاله من الذاكرة . وتقرأ أحياناً قصة من القصص الممتعة فيهزك منها طرافة الفكرة ، وتروعك سلامة العرض ، وتبهرك وثبات الأداء ؛ فاذا انتهيت منها لم تجد لها أثراً في نفسك ، ولا صدى في ذاتك ، ولا بقاء في ثنايا الشعور . وقل مثل ذلك عن قصيدة من الشعر ، وعن لوحة من التصوير ، وعن قطعة من الموسيقى ، وعن طرفة بالغة الروعة من طرف الفن الجميل ... وتسأل نفسك : هذا الوجه الفاتن الذي لقيته، وهذه القصة الممتعة التي تصفحتها ، وهذه القصيدة الفريدة التي قرأتها ، وهذه اللوحة البديعة التي رأيتها ، وهذه الموسيقى الرفيعة التي سمعتها ؛ هذه الروائع كلها لماذا كانت بنت لحظتها في إثارة إعجابك ، ووليدة وقتها في إلهاب إحساسك ، وتوأم جوها الزمني في تحريك مشاعرك ؟ وتروح تنتظر الجواب وقد يعييك أن تظفر به وأن تهتدي إليه ، لأنك حائر بين أشياء ونظائر ... فهناك في الكفة الأخرى من الميزان روائع أخرى لم تنطو بانطواء الزمن ، ولم تنقض بانقضاء الأيام : هناك وجه جذاب لا ينسى ، وهناك قصة فنية لا تنسى ، وهناك قطعة موسيقية لا تنسى ، وهناك لوحة وقصيدة . هناك أصداؤها

التي تصافح العاطفة ، وترفرف بين الجوانح ، وترسب في أعماق الذهن ، وتعانق عرائس الخيال .

وفي انتظار هذا الجواب، تشعر أن « شيئاً ما » ينقص تلك الروائع الأولى ، شيئاً ما يفقدها صفة البقاء في الكيان الشاعر ... في نفسك . وقد تطول بك الحيرة وأنت تسعى وراء هذا الشيء تريد أن تضع عليه يدك ، وأن تخضعه لمنطق العقل ، ولسلطان الذوق ، ولكل مقياس من المقاييس . وقد يكون مصدر الحيرة أنك تلمس في تلك الروائع فناً قد اكتملت عناصره ، وتنوعت مذاهبه ، وفاحت منه رائحة النضج وسطعت لوامع النبوغ، تلمس هذا كله ولكنك لا تزال تفتش عن هذا الشيء الناقص ... الشيء الذي يشعرك فقده بأن بعض الوجوه ما هي إلا تماثيل باردة تنقصها الحرارة ، وأن بعض القصص واللوحات ما هي إلا صور هامدة تنقصها الحركة ، وأن بعض القصائد والقطع الموسيقية ما هي إلا أصداء تفتقر إلى معاني الحياة

هذا الشيء ما هو ؟ هو في كلمة واحدة : (الروح) ... الروح الذي يدفىء برودة التمثال ، وينطق صمت الصورة ، ويحيي موات الشعر والنغم

والروح في الفن هو ذلك اللهب المتوهج الذي يحمل إليه الدفء من موقد الحياة وينقل إليه الضوء من مشعل النفس ، وهو في هذه الدراسة الفنية آخر حاجز بين أداء في الشعر وأداء ، بعد تلك الألوان المتقدمة من شتى الحواجز والفروق . وقد تجد في الشعر الأداء اللفظي شيئاً من الحرارة التي تشعها الألفاظ بين حين وحين ، ولكنها حرارة « التكييف الصناعي » لا سواء ... وإذن فلا مناص من التفرقة بين حرارة ذهن ولفظ وحرارة نفس وحياة ، أو بين حرارة شعر مصنوع وحرارة شعر مطبوع، أو بين حرارة أداء لفظي وحرارة أداء نفسي ، ولا حاجة بك بعد هذا كله إلى أن تسأل نفسك : لماذا كانت بعض الأعمال الفنية بنت لحظتها في إثارة إعجابك ، ووليدة وقتها في إلهاب إحساسك، وتوأم حدها الزمني في تحريك مشاعرك ، ولماذا لم تنطو بعض الأعمال الفنية الأخرى بانطواء الزمن ولم تنقض بانقضاء الأيام !

بعد هذا تعال نستعرض هذه الأبيات التي قالها البحتري في وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز في غسق الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه ... يبث حديثاً كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه ... عليه كما نشرت وشيا منمنما
ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجيء بأنفاس الأحبة نما

ألا تحس معي أن هذه النهوضة الشعرية في رحاب الطبيعة هي نهوضة ذهن وليست نهوضة نفس ؟ نحن لا ننكر أنه شعر يحفل بالجمال ، ولكنه جمال من غير روح . ولا ننكر أيضاً أنه شعر ينبض بالحركة ، ولكنها حركة ذلك « الإنسان الآلي » الذي لا حياة فيه ... لو تجاوب البحتري مع الطبيعة ذلك التجاوب الذي تحدثه الألفة والكلف والهيام والاستغراق ، لما اقتصر على هذا الأداء اللفظي الذي خلا من الانفعال الذاتي الصارخ ، ولقدم لنا أداء نفسياً يموج بالطاقة الحرارية الملتهبة !

إنه رجل يصف مجلى من مجالي الطبيعة والربيع في إبانه ، ولكنه أشبه بذلك الظمآن الذي يصف لنا كوبا من الماء المثلج في قيظ الصيف ، ثم يغفل عن تسجيل الانتفاضة النفسية التي يحدثها الري بعد انطفاء الظمأ وانتعاش الشعور . هو كما قلنا لك شعر جميل ، ولكن أين جمال الوجه من « جمال الروح » ؟ إنه شعر « السطوح الخارجية » لمشاهد الحياة !

أليس الشعر الصادق « عملية استقبال » تعقبها « عملية إرسال » ؟ هو كذلك على التحقيق ... ولكننا نريد في هذه المحاولة المذهبية الجديدة في فهم الشعر أن تكون العملية الأولى عملية استقبال حسية ، وأن تكون العملية الثانية عملية إرسال نفسية . أي أننا يجب أن نتلقى المشهد المادي بكل أداة من أدوات الحس ، ثم نذيعه بعد ذلك بكل لغة مناسبة من لغات النفس ، وبخاصة في هذا اللون الأخير الذي قدمناه إليك تحت عنوان : « الصور الوصفية في إطارها الحسي » ، ومنها هذه الأبيات التي قالها البحتري في وصف الربيع !

وتعال مرة أخرى لنستعرض « الجمال الطبيعي » ، الجمال الذي تتنفس فيه الروح لا الجمال الذي تصنعه « الأصباغ والمساحيق » ...

إنه هنا في ذلك الشعر الذي يتجاوب مع الطبيعة والنغم

الراقص والشعور الخافق والخواطر الصادحة، ويهتف لها من خلال نشوة الخمر وروعة الغناء :

هيئي الكأس والوتر تلك « كومو » مدى النظر
واصدحي يا خواطري طويت شقة السفر
ودنت جنة المنى وحلا عندها المقر
قد بعثنا بها على موعد غير منتظر !

أرأيت إلى عملية الاستقبال فى البيت الأول ؟ إنها عملية استقبال بدأت بالحواس : حاسة تطلب الكأس ، وحاسة تشد الوتر ، وحاسة تنعم النظر ... وأعقبها عملية إرسال بدأت بالشاعر : فى البيت الثانى خواطر تصدح ، وفى البيت الثالث جنة تدنو، وفى البيت الرابع بعث على غير ميعاد وستعترضك عملية استقبال أخرى حسية فى البيت السادس والسابع والثامن والتاسع عند ما يقول:

البحيرات والجبال قد توشحن بالشجر
وتنفين بالغما م وأسفرن بالقمر
والبرونات غادة ليست حلة السهر
نثرت فوقها الدنا ر كما ينثر الزهر !

ونود أن ترجع إلى الفصل السابق من فصول هذه الدراسة لتلاحظ الفوارق التعبيرية بين الاصطلاحات النقدية ، حتى لا يقع فى ظنك أن عملية الاستقبال الحسية هنا هى عملية الإحساء الحسية هناك ، لأن الفارق بين الحواس التى تحمى ثم تسجل وبين الحواس التى تتلقى ثم ترسل فارق ملحوظ ! وإليك عملية الإرسال النفسية الثانية التى لا تختلف عن العملية الأولى لحظة من زمان .

وعبرنا رحابها فأشارت لمن عبر
هاكها قبلة فمن رام فليركب الخطر !

لقد استحال جبل « البرونات » هنا إلى غادة يعبر رحابها كل عاشق من عشاق الطبيعة ، وهى لمسة من تلك اللمسات الشعورية التى تترجم فى صدق عن لغة النفس ، حين تندمج فى المنظر المعروض على البصر بكل خلجة من خلجات الوجدان . ومن أبلغ طرق الدلالة على هذا الاندماج أن يتخطى الشاعر مرحلة الهيام من جانب واحد إلى مرحلة العشق المتبادل بين جانبين ؛ التبادل بين الطبيعة وبين هؤلاء السارين فى مباهجها بدفعهم الشوق ويلهبهم الحنين . الشاعر عاشق والطبيعة عاشقة ... ولكنه هنا يقف على السفح وهى هناك تنتظره فوق القمم ، تلوح له بقبلة من القبل المسكرة لتثيره وتغريه ، بنية أن يصعد إلى شرفتها الأنيقة فى أعالى الجبل شأن كل حبيبة تدعو المحب إلى ركوب الأخطار ! وأى حب صادق لا يستهين بالصعاب ولا يهزأ بالأهوال ؟ لقد أصاخ هو للنداء واستجاب للدعاء ، وصعد مع الصاعدين إلى خدرها الخالد :

فسمونا لخدرها زمراً تلوها زمر
وحللنا بقمة . دونها هُوَّة الفكر !

هل خرجت من أبيات البحترى بشىء مما خرجت به من هذه الأبيات ؟ لقد كان موقف البحترى أمام الطبيعة أشبه بموقف رجل أمام حسناء لا يشغله منها غير وصف مفاتنها الجسدية ، أما أثر هذه المفاتن فى نفسه ووقعها على شعوره فليس لها فى شعره مكان ... لو تذوق البحترى طعم القبل من ثغر الطبيعة كما تذوقها هذا الشاعر المصرى ، لاستطاع أن يزف إلى مشاعرنا ذلك الأداء النفسى الذى لا ينطلق إلا من قلوب المحبين :

بهج فى كنوزها للمحبين مدخر
بابل أم بحيرة أم قصور من الدرر ؟
أم رؤى الخلد فى الحيـــاة تمثلن للبشر ؟

إن الطبيعة فى عدسة البحترى (كادت) أن تتكلم ، أى كادت أن تأتى بحركة من الحركات الصوتية وهى الكلام ، وهو فى رأينا تصوير لم يبلغ درجة « الفناء الشعورى » الذى يوهم الشاعر أن المرئيات قد انتقلت من مرحلة اللاإرادة إلى مرحلة الإرادة .

ولكن الطبيعة فى عدسة الشاعر المصرى قد خطت هذه الخطوة الهائلة حين أصبحت الحركة المرئية فى حدود الواقع المحس الذى تعبر عنه كلمة (كان) لا كلمة (كاد أن يكون) :

لا تقل أخصب الثرى فهنا أورق الحجر ! !
ها هنا يشعر الجمـــا د ويوحى لمن شعر ! !

الحجر هنا أورق ولم يقل الشاعر « كاد » أن يورق ، كما « كاد » الربيع هنالك أن يتكلم ... ترى لم لم يقل القرآن الكريم : « ورأى جداراً يكاد أن ينقض » ؟ لأن الجدار قد بلغ من وهى الاساس وتداعى البناء وشدة القابلية للانهيار ذلك الحد الذى

لا نصدق فى وصفه كلمة « يكاد » ، وإنما نصدق فى وصفه كلمة أخرى تهيىء له «الحركة الإرادية» ليبلغ الأداء النفسى منتهاه ، ومن هنا كان هذا التعبير القرآنى الفذ : « ورأى جداراً يريد أن ينقض » !!

وتنتقل عملية الاستقبال الحسية الثالثة من مجالى الطبيعة المادية إلى مجالى الطبيعة الحسية ممثلة فى وجوه الحسان ؛ تلك الوجوه الرانية رنو زهرة الصيف للمطر ، المتوهجة بدم الشباب الذى لا تطفىء جذوته قطرات من الخفر ، ذات السمات الأضحيانية والطرر الهلالية ... وعندما ينتهى الشاعر من هذه الجولة البصرية الواصفة تبدأ على الأثر عملية الإرسال النفسية الثالثة ، وياله من إرسال ذلك الذى يرتفع بالشعر إلى مثل هذا الأداء :

إنما تنظر السما ء إلى هذه الصور
لترى الله خالقاً مبدعاً معجز الأثر !

وفى غمار النشوة الجارفة بين أعياد الطبيعة وأعياد الشعور ، لم ينس الشاعر تلك الأديبة الأمريكية التى صحبته فى هذه الزيارة ... لقد استهل المقطوعة الثانية من القصيدة مشيراً إلى عالمها الجديد مشيداً بمآله الغابر ، وهى لفتة من لفتاته القومية الرائعة التى يزخر بها شعره ، والتى سنفرد لها فصلاً خاصاً من فصول هذه الدراسة .

فى دمى من تراثه نفحة البدو والحضر
وأغانٍ لمن شدا ومعانٍ لمن فخر !

ويأبى الشاعر إلا أن يجمع بين نشوة الروح ونشوة الجسد فى مكان ، وهكذا كان فى واقع الحياة وواقع الفن .

نحن روحان عاصفا ن وجسمان من سقر
فاعذرى الروح إن طغى واعذرى الجسم إن ثأر !

ويمضى الشاعر بعد ذلك فى نفس الطريق ممرجا على الصوى الجسدية المنتثرة على جانبيه ، وكم مر بهذا الطريق فى شعره وكم عرج على سواه .. هنا كرمة الخلود فلا حاجة به إلى الخمرة الفانية ، وهنا النبع الدافق بكل نزعة عارمة وكل نزوة عانية .

ولمن هذه العيون ؟ إنها للشاعرية الملهمة التى تملك القدرة على أن تقول :

بأن يلعبن بالنهى لعب الطفل بالأكر
هن أصفى من الشعا ع وأخفى من القدر !

ولمن هذه النهود ؟ إنها للجناح الخلق فى أفق قل أن نجد له نظيراً فى الشعر العربى الحديث ... هل رأت عيناك منظر الطير حين يثب من أوكاره قبيل الصباح ؟ لقد شبه على طه وثبة النهد من الصدر بوثبة الطير من الوكر !! ثم شاء الخيال النادر للنهد الطائر أن يقف الثوب حائلا بينه وبين الطيران ، فراح ينشب منقاره فى القيد الحريرى متبرما بوطأته ثائرا على قيوده .

وكما أن للطير منقاراً فان للنهد مثل ذلك المنقار :

عض فى الثوب واشتكى وطأة الخز والوبر
سمة الطائر المعـ ـذ ب فى قيـده نقر !!

ويدافع الشاعر عن موقف الانسانية إزاء الغواية الأنثوية وسلطانها القاهر . واستمع طويلا إلى هذا المنطق الخلاب لأنه منطق شاعر يجيد الدفاع :

ما أبى الخلد آدم أو غوى فيه أو عثر
زلة ورث الحجى وترى الله من كفر !

ويقول لصاحبته : « وإذا شئت فاسقنيه » ... وهذا هو الخطأ اللغوى الذى يؤخذ عليه ، وسبحان من لا يخطىء ! لقد كان على الشاعر أن يقول : « فاسقينيه » لأن الخطاب هنا للمفردة المؤنثة لا للمفرد المذكر . وبهذا الفصل ينتهى القسم الأول من هذه الدراسة وهو القسم الخاص بالناحية الفنية ، وفى الفصول المقبلة سنتحدث عن الشاعر كانسان بعد أن تحدثنا عنه كفنان ، رابطين بين شخصيته فى واقع الفن وشخصيته فى واقع الحياة .

(يتبع)

أنور المعداوى

من الأدب الفرنسى

قصائد وأقاصيص

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها .

وثمنه ٣٥ قرشاً عدا أجرة البريد